القديسة دميانة المصرية

والأنبا روسيما القس

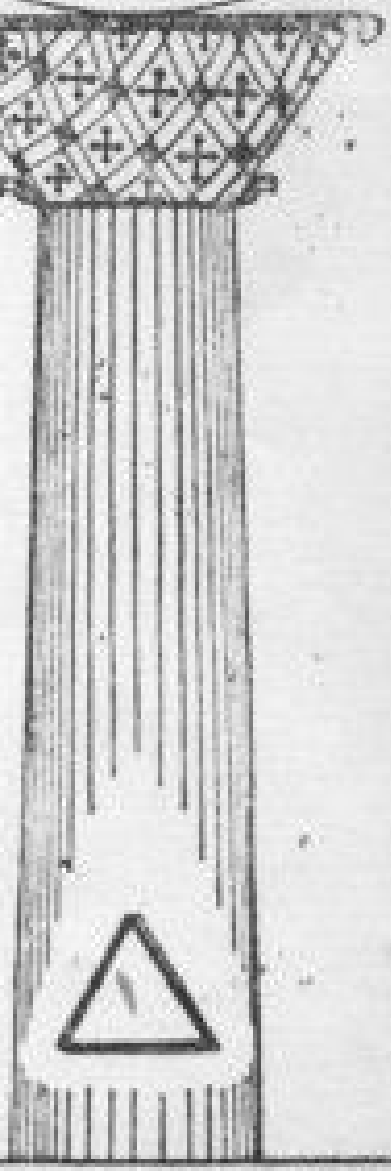

مدارس احد كنيسة السيدة العذراء بمصر

تاريخ أحد كنيسة السيدة العذراء
بحرم بك

سلسلة من سير قديسي الكنيسة

١

القديسة مريم المصرية

والأنبا زوسيما القس

يطلب من :

مكتبة مدارس أحد كنيسة السيدة العذراء بحرم بك
ومكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج .

حضرة صاحب القداسة البابا المعظم لأناكيرلس السادس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية .

مقدمة

نحتاج كثيراً في حياتنا الروحية إلى أمثلة حية . . ولا نجد أعظم من تاريخ آبائنا ـ قديسي الكنيسة القبطية ـ لنقدم منه نماذج قوية . . . وقد اخترنا هنا مثلاً على حياة التوبة العجيبة . نسأل الله أن يجعلها بركة للكثيرين ، وله المجد دائماً أبدياً آمين ؟

هذا الكتاب . . .

هو سيرة عذراء عاشت في القرن الخامس الميلادي .

أمضت حياتها الأولى في دوامة من شرور هذا العالم الجارفة ، فارتمت في ملذاته غير الشريفة بنفس . لم يكن لها ما يوجه حياتها سوى والداها اللذان سرعان ما إنتقلا من هذا العالم . . . فأصبحت حرة طليقة من بعدهما . . . بل ما يقرب من (١٧ عاماً) تنفق في إشباع ملذاتها . . . ولكن ـ هل كان في كل ذلك شبعاً لنفسها . . ! ؟

لم يكن الأمر كذلك . . . لأنها حينما التقت فجأة مع النعمة الإلهية وأحست (بنعمة الرب يسوع) الواضحة في حياته . . تركت كل شيء للوقت . . . وتبعته .

صلبت به لأنها وجدت فيه شبعاً حقيقياً لنفسها الجائعة . . باعدت كثيراً . . لكي تنتصر . . بكت . . لأنها لم تجد ذاتها مستحقة له لأجل خطاياها الكثيرة . ولكن يسوع قال لها (تغ . . . مغفورة لك خطاياك) مت ٩ : ٥ . فلا تعجب . . !

إنها التوبة تجعل الزناة يولدون . انهن تدخل إلى محبة يسوع وتجتذبهن وتلدهم من حضنها يولدن للمسيح .

هذه السيرة :

+ إلى المتنافين لحياة الطهارة . .

لأن هذه القديسة واحدة من قديسات كثيرات عشن فى عمق الشركة مع الله لأنهن وجدن فيه كل احتياجاتهن . .

إنه وحده القادر أن يملأ فراغ نفوسنا التواقة إلى الحب .

+ إلى المجاهدين . .

تقدم لهم جهاداً . . (حتى الدم ضد الخطية) لإمرأة . . عرفت عظمة الحياة مع المسيح ، وكم تحتاج إلى تضحية . خاصة أمام موت المسيح لأجلنا . . أحست بفداحة الخطية وخطورتها . . أعطت لإيمانها الصورة الحية العاملة فسارت من نصرة إلى نصرة .

لذلك . . لتطب نفسك يا أحبائنا المجاهد المتعب من أجل الحياة الأبدية . . ونوصيك الانحور فى الطريق فأنت لست وحيدك فى طريق الرب الذى إجتازه هو نفسه أولا . . فهو معك يقويك . . كما أن هناك سحابة من القديسين قد سبقوك فيه . . وهذه واحدة منهم فتشجع . . .

+ أخيراً إلى البعيدين والمتكاسلين . .

دعنى أسألهم . . أن يلقوا ذواتهم أمام صليب ربنا يسوع . إن هذا العالم بكل مباهجه لا يمكن بأية حال أن يشبع نفوسنا التى شكلت على صورة الله . . ولا يسد فراغها سوى الله ذاته خالقها . . كما قال أغسطينوس (ألست أنت خلقتنا يارب . . وستظل قلوبنا قلقة ومضطربة إلى أن تستريح فيك) .

فكم جرينا وراء العالم ثم رجعنا فندمنا أخيراً . . ! ولكن لن تندم عن أية خطوة جريناها نحو يسوع لأن (جميع الذين تبعوه وجوههم إستنارت ولم تخز)

ماذا نعمل . .

إن المحبة الإلهية تقف حائرة أمام طيشنا من بعيد وتقول تعالوا إلى يا جميع المتعبين . . أنا أريحكم) مت ١١ : ٢٨ . . لماذا

لم تتعلم من الخطاة التائبين ؟ ! . . ما أعجبنا . . !

أيتحارع الزناة واللصوص والعشارين . . . لاختطاف الحياة الأبدية ونحن بنو الملكوت نتمرغ فى حمأة النجاسة ! حقاً (. . إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله) مت ٢١ : ٣١ .

ونحن (إذ رأينا أخيراً . . لم نندم) . . . ولماذا لم يأخذنا الحياء من اللحاق بهم لأنهم تقدمونا ! . . لماذا لا نخجل لأننا لم نقتد بهم . . . ؟

سبتمبر ١٩٦٢
تموت ١٦٧٨

مرارس أمر كنيسة السيدة العذراء

القديس زوسيموس (١)

فى أحد أديرة فلسطين عاش هذا الراهب القديس ناسكاً مجاهداً مثابراً على الصوم والصلاة وقهر الذات مداوماً على تلاوة الكتاب المقدس فى معظم أوقاته ومنشغلا بالتسابيح المقدسة حتى أن الشركة الأبدية أنارت روحه ورؤى سماوية كانت تبهج عينيه ، وكل الناس يقصدونه من كل صوب لسماع إرشاداته .

هكذا مكث زوسيموس نحو (٥٣) سنة بالدير لم تعصف به التجارب . ولكن كان لابد أن تهاجمه أفكار العظمة الكاذبة ، فحدثته + أفكاره بأنه أعظم ناسك على الأرض وأنه قد بلغ مرحلة الكمال المسيحى - فهل هناك فيلسوفاً يفوقه فى طريق المعرفة . . ؟ !

ولكن الله الذى لايقدر أحد أن يخطف خرافه من يده أراد أن يؤدبه فأرسل إليه أحد الرهبان الذى إلتقاه إلى دير قرب نهر الأردن وتركه هناك وأمره أن يقضى فيه بقية حياته . . فأطاع زوسيم هذا الصوت كأنه من السماء ولاسيما أنه كان يود أن يرى من هو أعظم منه .

(١) راهب عاش فى القرن الرابع الميلادى .

وهناك قابله رئيس الدير بإتضاع كثير قائلاً :

« لماذا جئت إلى مساكين مثلنا . . ؟ ! »

فأجابه زوسيم بأنه ما جاء إلا ليتعلم طريق الكمال منهم . ولكن الرئيس أجابه : أن الله وحده الذى إقتادك إلى ههنا هو الذى يعلمك . وسمح له الإيغومانس أن يأخذ مكانه بين الإخوة ، فكان يرى كل يوم أموراً تتعجب لها نفسه فيتصاغر أمامها . . .

فرجع وندم على ما كان من أفكاره الشريرة ، وكان يكلم نفسه قائلاً : مسكين يازوسيم لأنك ما فعلت الا ما فى إستطاعة أى إنسان أن يفعله . ولم تفعل إلا قليلاً مما ينبغى عليك فعله وإراد الله أن يعطيه درساً أشد قسوة من الأول .

وكان الدير قريباً من الصحراء التى كانت شاهدة لصوم المسيح له المجد فكانت من عادة الرهبان أن يقضوا فترة صوم الأربعين المقدسة خارج الدير ، كل على إنفراد ، ممارسين فيها أصعب التداريب النسكية ولا يرجعون إلا فى أحد الشعانين . خرج زوسيموس كالعادة من بعد صلاة قداس الأحد الأول من الصوم بعد التناول وبعد تلاوة الصلوات الخاصة بهذه المناسبة وقبل إخوته الرهبان قبلة المحبة والسلام وصنع ميطانية أمام الرئيس وأخذ بركته . وبعد أن عبر الأردن قرر أن يمضى فترة الصوم كلها

ماشياً . فإجتاز جبال موآب ولمدة عشرين يوماً كان يسير بإستمرار مرتلاً ومصلياً لايتوقف إلا عند الغروب ليأكل وينام بعض الوقت .

لقاء مع مريم المصرية

ولما أوشك الصوم أن ينتهى كان عليه أن يفكر فى العودة ، فمال إلى الشرق قليلاً ، وما كاد أن يركع ويرفع عينيه إلى السماء ليصلى . . . حتى لمح أمام عينيه على بعد شبه جسد إنسانى فظنه فى أول الأمر شيطاناً أتى ليجربه . . ، فإرتعد من الخوف ورشم علامة الصليب تجاه هذا المنظر .

ولما تحقق منه وجد أنه شبه إنسان يمشى ناحية الجنوب وكان جلده بنياً من أثر حرارة الشمس وشعره يشبه الصوف . وجرى زوسيم نحو هذا الإنسان ولكن سرعان ماهرب هذا الأخير منه . فتبعه زوسيم كبر سنه وهرع مسرعاً وراء الشبح المجهول . وأخيراً إقترب منه وصرخ نحوه : ياخادم الله يا أخى توقف . . . لماذا تهرب من عجوز مثلى ! ؟ إنتظرنى من أجل محبة الذى أتيت لتخدمه ههنا .

فأشفق الشبح على الشيخ وتوقف عند حفرة فى الأرض تشبه

آثار نهر جاف . وكان زوسيم قد تعب جداً فوقع على ركبتيه باكياً ومخبئاً وجهه بين يديه .

فتكلم هذا الشخص المجهول معه قائلاً : يا أبى زوسيم سامحنى من أجل المسيح ، ولكنى لا أستطيع أن أبقى بجانبك لأنى إمرأة . وإن أردت أن تقدم خدمة لخاطئة مثلى فأترك لها رداءك لتستتر به وأعطها مركتك

ولما سمع زوسيم إسمه فى وسط الصحراء ومن كان لم يكن قد رآه من قبل فهم أن هذه المرأة ماعرفته إلا بإرشاد إلهى ، فطرح لها رداءه وبعد أن وضعته على جسدها قالت له : لماذا فكرت يا أبى فى زيارة خاطئة بائسة ، وماذا ستنتفع من إمرأة مثلى قالت هذا وهى جالسة على ركبتيها وكان زوسيم أيضاً قد فعل مثلها بدون وعى منه وبقيا على هذا الوضع بعض الوقت صامتين .

أخيراً قالت المرأة : يا أب زوسيم أرجوك أن تباركنى ، فأنت كاهن ورتبتك العالية والأسرار المقدسة التى تمارسها كثيراً تعطيك هذا الحق .

فتعجب الأب جداً من معرفتها بكهنوته ولم يتمالك نفسه حتى

العالم حتى أن الله قد غمرك بمواهب عجيبة فقد عرفتى إسمى وكهنوتى مع أننا لم نتقابل من ذى قبل . فأطلب إليك بغض النظر عن كهنوتى أن تباركنى وتصلى لأجلى . . .

حينئذ أمام توسلاته باركته قائلة : مبارك الذى يخلص النفوس. فأجاب هو آمين ؟

وعندئذ إنتصبا من سجودهما فقالت له المرأة : لماذا أجهدت ذاتك أيها الأب القديس لرؤية إمرأة مجردة من الفضائل ! ! ؟ وحيث أن روح الله قادك الى لحدتى عن ملكوت الله فى العالم فإن لى زماناً طويلا فى الصحراء ولم أبصر كائناً حياً .

وبعد أن أجابها بما طلبته منه سألها أن تصلى هى أيضاً من أجله . فقالت له : أنت تصلى لأجلى ولأجل جميع الخطاة لأنه لهذا وضعت عليك الأيادى ، وهذا هو عملك . وإستدارت نحو الشرق ورفعت عينيها نحو السماء وبسطت يديها وإبتدأت تصلى صلاة سرية .

أما زوسيم فكان صامتاً ومطرقاً رأسه إلى الأرض . ولما أطالت القديسة صلاتها رفع رأسه فوجدها فى غيبوبة وكانت مرتفعة عن الأرض بنحو ذراع ، ففكر فى أنها تصنع هذه المعجزة بقوة

الشيطان مظهرة نفسها كأنها من القديسين . ولكنها فاجأته قائلة: لما هذه الأفكار الغريبة التي تدور بفكرك يا أبي ، فأنا لا أراني ولست للشيطان في شيء ، وبرغم خطاياي الكثيرة ولكن الله غافر الخطايا والآثام قد أمطر على من كنوز نعمته ومراحمه اللانهائية .

وكان الأب متعجباً ومتحيراً جداً أمام هذه النفس التي حباها الله بفضائل كثيرة . فأراد لو أمكنه أن يعرف سر هذا السمو الروحي الذي رآه فيها وقال لها في جرأة مقدسة : باسم المسيح الذي قادني إليك أرجوك أن تعرفيني شخصيتك ولماذا جئت إلى هذا المكان ـ وكيف إستطعت أن تبقي في هذه الوحشة المخيفة . . وكم قضيت من السنين ههنا ـ وما هي وسائل معيشتك . . . ؟

إعترافها

عندئذ قالت : إنني أخجل جداً يا أبي من أن أظهر لك عيوب حياتي وسامحني مقدماً من أجل استحقاقات صليب ربنا . . ولكن . . . نعم سوف أخبرك بكل شيء . . لكيما تعرف مقدار بؤسي . وليس سكوتي من باب الخوف من الوقوع في خطأ التفاخر ولكن لئلا تجعلك خطايا شبابي تهرب فزعاً . . . لذلك أرجوك أثناء

حديثي اللوم الذي سوف تسمعه يا أبي الا تتوقف عن الصلاة لله من أجلي لكي يكون راضياً عني إلى اليوم الأخير . وإبتدأت تحكي . . .

حياتها الأولى

أنا مصرية وفي سن الثانية عشر أخذني والدي معهم إلى الإسكندرية التي كانوا سيسكنون فيها . وكان الفساد ظاهراً في وضوح النهار في كل أحيائها ، فأفسدت طهارة ذهني وكانت آلاف الخيالات المريعة تفسد أفكاري وآلاف الرغبات الشريرة تملأ قلبي ، وكانت إرادتي تقبل كل شيء وما كان يعنيني إلا الخوف المقترن بالإحترام لوالدي فكانا على أية حال يراقبانني في علاقاتي وطرق مراقبة شديدة وهذا ما كان يؤلمني جداً . وكان كلما إشتدت على رغبات قلبي الفاسدة تخلصت من ذلك الضيق بهروبي من المنزل جرياً وراء اللذة الجسدية ، ولكن ما لبثت أن فقدت والدي الواحد تلو الآخر لأنه ربما لم أكن مستحقة لرعايتهما . . . وكان موتهما مثل الناقوس الذي دق ساعة حريق . . . وأية حرية ! ؟ لقد أفسدت روحي فساداً تاماً وفقدت بكورية جسدي وأسلمت نفسي للملذات الغير المحكومة إلى مدة (١٧) عاماً . ولم يكن

ذلك عن إحتياج مادى أو لمحبة فى الجواهر والهدايا ولكن كان فقط من أجل إشباع الحواس

ذهابها إلى أورشليم

وفى يوم من أيام الصيف رأيت جمعاً من المصريين والليبيين نازلين تجاه الميناء ، فجريت نحو واحد منهم وعلمت منه أن كل هذا الجمع كان يذهب إلى أورشليم لتكريم الصليب المقدس الذى كان سيحتفل به بعد أيام .

وللحال دبرت خطتى فقلت له : وهل تأخذونى معكم إذا أردت أن أسافر ؟ فأجاب : ولم لا ؟ إذا كنت تستطيعين دفع أجر مكانك وتأخذى المؤن الكافية للسفر .

فأجبته « الحق أيها الرجل الطيب ليس عندى مليماً واحداً لسكى ما أدفع تكاليف السفر والطعام ، ولكنى على أية حال سأسافر فهذا لا يهمنى فسوف أنسال إحدى الراكب وبالتأكيد سأجد ما آكل ، لأن لى تجارتى أنا أيضاً »

ونظرت إلى الأب زوسيم بخجل قائلة : فانظر قساوتى يا أبى ، أنظر عارى ، فقد كان الغرض من سفرى هو إهلاك النفوس . !

ولكن الرجل الذى سألته فهم معنى هذه الكلمات التى استعملتها وهز رأسه وجاز فى طريقه .

أما أنا فحق دون أن أعود إلى منزلى سرت مسرورة نحو الميناء فوجدت جماعة من الشبان يتناقشون ففكرت فى أنى سوف أنجح . . . وإقتربت وبدون خجل إنضممت إليهم وقلت لهم : أيها الشباب خذونى معكم ، فليس معى مايكفى لمصاريف السفر ، وبالتالى سأجعل نفسى نافعة بقدر ما أستطيع . هل فهموا سوء نيتى التى كانت تتفق إتفاقاً تاماً وشهوات منهم — أو أنهم لم يروا فى سوى مسيحية فقيرة أرادوا أن يؤدون لها خدمة جليلة . . ! ! ؟

لا أستطيع أن أقول ، ولكن الذى حدث هو أنهم قبلونى ، وحيث أن السفينة التى ركبوها كان قد حل موعد تحركها ركبت معهم بملابسى كما هى ورفعوا المرساة على أصوات التصفيق ، وكنت أودع بيدى مع رفاقى الفرحين المبانى العظيمة التى للمدينة وسرعان ما إختفت تدريجياً ولم يبدو من الإسكندرية إلا فنارها المنير من بعيد مثل النجم : ونظرت إلى الأب قائلة . . . دعنى لا أذكر هذا العبور فهو أكبر ندم فى حياتى البائسة ، حتى أننى أندهش كيف أن البحر إحتمل مثل هذا الفسق . . ! ! والأرض لم تفتح فاها لتبتلعنى من بعد خروجى من السفينة مباشرة وتدفننى حية فى جعتم . . ! ؟

ولكن . . . الله برحمته الكثيرة الذى لايريد موت الخاطىء . . . كان ينتظرنى . أخيراً وصلنا إلى أورشليم وكانت مدة إقامتى بالمدينة المقدسة لم تغير شيء فى سلوكى المخطىء . فكنت هناك أقطع شراً مما كنت عليه قبلاً . فكنت أضيع أرواح الشباب وألقى الشباك لإصطياد براءتهم .

أخيراً جاء يوم العيد فلما رأيت الجمع يتجه نحو كنيسة القيامة إنضممت إليهم ووصلت إلى الساحة . وكأنى محمولة من شدة الزحام وكنت أنتظر دورى لدخول الكنيسة وربما اوشكت على الإختناق عشرين مرة .

ولما وصلت إلى عند عتبة الباب وهممت بالدخول مثل الآخرين ولكن — لا . . .

فكان الآخرين يدخلون بكل سهولة واما انا فمهما حاولت ان أحرك رجلى فلا أستقل من مكانى فكانت هناك قوة خفية أوقفتنى فجأة ثم طردتنى من للدخل وأرجعتنى إلى الوراء ثانية . فوجدت نفسى وحيدة تحت البوابة وظننت ان ذلك ضعف ناتج من التعب أو (هلوسة) وضحكت على نفسى وجربت ثانية لآخذ مكانى بين الجموع التى كانت عند المدخل . وكنت أجاهد بيدى وكتفى لكيما

أكسب الوقت الذى ضاع منى فأتقدم باكثر سرعة ، ولكن كل هذا كان دون جدوى فإلى نحو ثلاث أو أربع مرات متتالية حدث لى نفس الشيء الخفى فكان السكل يدخلون بحرية وأوجد أنا وحيدة ومطرودة شر طردة .

فلما تعبت تركت المحاولة . . . فقد غلبت . وإنسحبت إلى مكان منعزل من البوابة لأسترجع وبعد تفكير كثير إنتهيت إلى أن السبب فى هذا كله هو . . . عدم إستحقاقى . فكانت حياتى الفاسدة حاجزاً . أجل . وأى شركة بين شريرة مثلى وبين صليب المسيح . . . ؟!

توبتها وصلاتها

لما شعرت بهذا أخذتنى نوبة من الإنفعال وإنفجرت بالبكاء من دون أن أدرى . . . وأخذت أقرع صدرى بشدة ودموعى تنهمر بغزارة . وبينما كنت على هذه الحال تطلعت إلى فوق فلمحت أيقونة للسيدة العذراء إذ كانت فوق رأسى ، فصرخت فى خزى « ياعذراء . . إنى أدرك مدى قذارتى وعدم إستحقاقى لأن أدخل كنيسة الله ، بل إن نفسى الدنسة هذه لاتستطيع أن تثبت أمام صورتك الطاهرة . فالخجلى . . وصغر نفسى أمامك الآن . .

لكن قولى لى أيتها الأم ، ألم يتجسد إبنك إلهى من اجل خلاص الخطاة؟ فساعدينى فى محنتى هذه أيتها الشفيعة المؤتمنة وإسألى الرب عنى ليهبنى إستحقاقاً للدخول الى كنيسته حتى ماألقى بنفسى أمام خشبة صليب أبنك وأقبلها .. حيث تم خلاصى .. إرفعى عنى هذه القوة التى تقاوم دخولى لأنى أعزم عزماً أكيداً الا أسلم نفسى ثانية إلى شهواتى .

وبعد أن أكرم الصليب المقدس ، سوف أودع العالم وكل ملذاته . وداعاً نهائيا .. نعم سيكون ذلك . وأذهب حيث يشاء إلهى . . وحيث ترشدنى يا أمى » . .

وبعد أن أتممت صلاتى ونذرت نفسى هكذا ، وجدت نفسى مليئة بالثقة ، وكنت مقتنعة بأن طلبتى قد أستجيبت تماما ، فتركت للسكان المنعزل وأخذت مكانى من جديد بين جموع الواقفين .

فكم كان أنفعالى وخوفى وأنا أقترب من السكان المقدس حيث طردت منه عدة مرات منذ لحظات .

وكان قلبى ممتلئاً من الإنسحاق والندم وكنت أرى نفسى صغيرة وحقيرة جداً أمام العظمة الإلهية .

وتبعت الجمع حتى وصلت أمام العتبة . . وياللاعجوبة وعمق الهبة الإلهية ! ! فكل حاجز كان قد رفع ، ولكن مع ذلك كنت أرتعد من القاعدين إلى الرأس .

فسجدت على الارض وسكبت دموعاً غزيرة على الخشبة المقدسة وقبلتها ، ونسيت نفسى فى صلاتى حتى إلى منتصف النهار . أخيراً . . بعد خروجى من الكنيسة ، مررت عند مكان توبتى المنعزل ، حيث أنقلب فساد قلبى . . وهتفت من أعماق مشاعرى « المجد لك يارب إلهى ، يامخلص نفسى . . يامن قبلت شفاعة والدتك من أجلى ، لأنك أنت قابل الخطاة الراجعين اليك وأنا أنا يارب فلا أستطيع أن أعبر عن شعورى بمحانك وحبك الغير المحدود لى . . وعظمة هذه الحياة الجديدة التى تعطيها للتائبين .

وأنت أيتها العذراء أرجوك أن تشجعنى بشفاعتك فى تتميم نذرى وأطلب عنى كثيراً أمام أبنك يسوع حتى يقود حياتى وفق إرادته . . والآن ماذا أفعل ؟ فلتتسلم ياسيدى حياتى وتقودنى كما تشاء . . !

حينئذ سمعت صوتا يقول :

(أعبرى الأردن فهناك تجدين مكانا لخلاصك) .

فتركت المكان متأثرة جداً بما حدث . ولم أنسى أبداً لحظات توبتى ودموعى . وطلبت من العذراء الاتساق ومشيت ولم أعلم إلى أين أمضى . . فمكثت هناك حتى الصباح .

ولما مضيت فى طريقى قابلت رجلا أعطانى ثلاث قطع من الفضة وقال لى « خذى ما أعطاك الله » فتمتمت ببعض كلمات الشكر ومضيت فى طريقى . . وتوقفت عند خباز واشتريت منه ثلاثة أرغفة وجبنها تحت ردائى وطلبت منه أن يرينى الطريق المؤدية إلى الأردن .

وبعد أن عبرت من باب المدينة أحسست بأنى قد تغيرت جداً وكنت أجرى أكثر مما أمشى حتى إنتهيت إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان المقامة بقرب النهر المقدس . . وهناك لم أتمالك دموعى عند تذكرى خطاياى فذهبت إلى النهر المقدس وغسلت وجهى . . ودخلت بعد ذلك إلى المكان المقدس . . وهناك مارست (سر الاعتراف) فشعرت بارتياح عميق وفى أثناء صلاة القداس بعد ت للتناول . ثم رجعت من الأردن منشجعة

أكثر من أى وقت مضى وهناك جلست على ضفافه الخضراء وكسرت نصف رغيف لأسند به ضعفى — لأنى لم أكن قد أكلت منذ يومين ثم استلقيت ارضا لاستريح بعض الوقت .

وبعد أن أستيقظت نقلنى مركب صغير إلى الضفة الأخرى .. فتضرعت إلى الله ان يرشدنى بما ينبغى أن أفعله ؟ ! وطلبت شفاعة السيدة العذراء الطاهرة .. وأخذت أسير فى الصحراء غير المسكونة حتى وصلت إلى هذا المكان حيث نحن الآن . وإنى بإذن الله أقيم ههنا فى العراء . . منتظرة بكل ثقة مجىء يوم الرب .

فقاطع زوسيم الرواية المؤثرة التى لهذه المرأة العجيبة قائلا :

أيتها الأم — كم لك من السنين ههنا ؟

فأجابته : تركت المدينة المقدسة منذ ٤٥ سنة

قال : وكيف أستطعت أن تعيشى ههنا لأنى لا أرى ما يمكن ان يبقى حياة بشرية ! ! ؟

أجابت : لقد كان لى رغيفان وهما اللذان بقيا معى بعد عبورى الأردن . ولما جفا أخذت آكلها قطعة قطعة .. والله الذى يدبر كل شىء دبر الباقى .

فعاد زوسيم يسأل : هكذا إذا أمضيت دون صعوبات هذا العدد الكبير من السنين ! ! ؟

جهادها وانتصارها :

أجابته : ان هذا الاعتراف الذى تطلبه منى صعب على جدا . فالتجارب التى مرت بى كانت شديدة حتى أن مجرد تذكرها اليوم يرعبنى .

فلقد سبعة عشر عاما حاربت الشهوات الغير المرئية التى للطبيعة الفاسدة . ثلما أحارب وحوشا حقيقية .

فكان الجوع يلازمنى ـ وللحال كنت أشتهى الشراب ـ لأنى كثيراً ماشربت من الخمور الفاخرة فى سنى حياة الخطية ـ ولكنى هنا لم أجد ما أشربه حتى فى أشد الأوقات حرارة .

وكان هذا العطش الغير المحتمل يتحول فى إلى ألم لا يطاق وكانت مئات الأغانى الخليعة ومئات الألحان القبيحة تعبر على ذهنى بل وتأتى على شفتى وحينئذ كنت أقرع صدرى مذكرة نفسى بمنظر توبتى الذى لا يزال حاضراً فى ذهنى .

وكنت أسلم نفسى بدموع تحت أقدام الأطالبة معونته وشفاعة والدته عنى وكانت لاتزال صورتها النورانية تملأ عينى .

وبعد جهاد كثير ودموع غزيرة كان يحوطنى نور باهر من كل ناحية وكانت التجربة تهرب من أمامى .

ومرات كثيرة أخرى كانت تهاجمنى فيها آلاف الذكريات الحسية والافكار الدنسة وكانت تجعل فى قلبى آلاما شديدة بل كانت تجرى فى عروقى مثل جمر مشتعل ، حينئذ كنت أخر على الأرض متضرعة من كل قلبى . . بل كنت أحيانا كثيرة أبقى على هذا الوضع أياما وليال . . إلى أن يحوطنى النور الالهى مثل دائرة من نار لايستطيع المجرب أن يتعداها . وكانت العذراء معينة لى بالحقيقة فى حياة التوبة فكانت طوال هذه المدة تقودنى بيدها وتصلى من أجلى .

وأستطردت تقول : « ولما فرغت الجزرات كنت آكل الحشائش والجذور التى كنت أجدها فى الأرض .

وأما ملابسى فقد تهرأت من الإستعمال . . وقد آلمنى الحرارة والبرودة كل بدوره ـ فكنت أحترق من الشمس أحيانا . وأرتعد

من البرد أخرى لدرجة أنى كنت أبقى مغميا على على الأرض . ولكن . . بالرغم من كل هذا فقد حفظنى الله إلى هذا اليوم .

وعندما أتذكر الأخطار والتجارب التى أعطانى النصرة فيها يزداد يقينى به ويبتهج قلبى بخلاصه . . فسألها الأب قائلا : ولكن يظهر لى أنك تعرفين الكتب المقدسة والمزامير ، فمن هو الذى علمك اياها ؟ !

أجابته : منذ أن تركت العالم وعبرت الاردن لم أر وجه إنسانا وأنت يا أبى اول كائن حى قابلته هنا ـ ولم أر لا وحشاً ولا حيوانا ـ فلم يعلمنى أحد ولكن الله يعطى من يبحث عنه من كنوز معرفته .

وأردفت تقول : واظن انه لايجب على أن أطيل أكثر من ذلك . . والآن . . وقد علمت تفصيل حياتى المريعة ، لم يبق لى إلا أن التمس منك صلاة حارة من أجلى . . وإنحنت حينئذ لتأخذ بركة الكاهن القديس .

فرفع هذا الأخير يديه المرتعشتين وصرخ بدموع :

(مبارك العلى الذى تعم مثل هذه العجائب العظيمة ، مبارك

إسمه الذى كشف لى عن كنوز النعم التى يغمرها قلوب خائفيه) . ثم وقفت فجأة لتمنع يدها الشيخ من أن ينحنى أمامها ليأخذ بركتها ؛ ولكنها وجهت اليه هذه الوصايا الأخيرة :

باسم الرب يسوع المسيح مخلصنا أستحلفك ألا تقول لأحد شيئا عنى او عن حياتى قبل أن اموت . والآن . . ياأب زوسيم عد بسلام الى ديرك وسوف تقابل بعد عام ـ لأنك فى الصوم القادم سوف لا تعبر الأردن كما هى العادة ، ولكنك سوف تبقى بالدير فهذه إرادة الله ـ فتعال فى يوم خميس العهد القادم عند ضفة النهر فى المكان الأقرب حاملا معك جسد المسيح ودمه الأقدسين ، وانتظرنى . . فسوف آتى لآخذ من يدك (سر التناول) الذى لم أكل منه منذ دخولى فى هذه الوحدة ولى إشتياق وإحتياج شديدين للاتحاد مع المسيح .

اوص الأب يوحنا رئيسكم ـ ليس الآن ولكن فيما بعد ان يسهر على القطيع المعطى لرعايته لأن كثير من خرافه تحتاج إلى تأديب .

والآن الى اللقاء فى العام القادم وفى الساعة التى أكل فيها

للمسيح العشاء الأخير مع رسله ... صل كثيرا من أجلي ،، وتركت الأب متعجبا جداً ولاهيا من التفاصيل الدقيقة التي أعطته إياها عن ديره.

ولما إبتعدت كان الأب يتبعها بنظراته إلى أن إختفت أخيرا.. ثم سجد وقبل الأرض التي داستها.

وأخذ طريق العودة الى الدير حيث وصله ليلة أحد السعف وهو اليوم المحدود لرجوع الرهبان.

† † †

حفظ زوسيم السر طوال السنة بأمانة وكان يصلي من أعماق قلبه من أجل التائبة العجيبة.. وكان يشتاق أشتياقاً مقدساً لرؤيتها ثانية.. ولذلك كان الوقت يبدو له طويلاً..

نيامة الفريسة:

عادت أيام الصوم المقدسة وخرج الرهبان كحسب العادة إلى الصحراء.. أما زوسيم فكان قد أعترته حمى في ليلة الخروج مما إضطره معها إلى البقاء بالدير.

ورأى أن هذا المرض بسماح من الله، وعلى أية حال فلم يكن المرض خطيرا ولا طويلا وان كان كافياً لإبقائه بالدير. وبعد قداس خميس العهد حمل (١) زوسيم الجسد والدم الكريمين كما أخذ معه بعض البقول والبلح وذهب ليتنظر مجيء القديسة على ضفة النهر. إنتظرها طويلاً.. وكانت عينيه تشخصان إلى الصحراء وتستكشف الأفق البعيد بقلق، حتى أنه فكر أنها ربما جاءت ولم تجدة وكان يصلي إلى الله طالباً رؤيتها.. وفجأة.. رآها على الضفة المقابلة أمامه فوقف مسروراً للغاية وصرخ نحو السماء يقدم الشكر لله.

ثم رآها ترشم علامة الصليب فوق المياة ثم تعبر النهر ماشية على الماء متجه نحوه بهدوء.. وإزاء هذه الأعجوبة حاول زوسيم أن ينحني أمامها ولكنها صرخت نحوه (أيها الأب.. أيها الكاهن.. ماذا تعمل..؟! هل نسيت انك تحمل الأسرار المقدسة!!؟).

حينئذ تقدمت هي وسجدت أمام السر في خشوع. وحسب

---

(١) يحمل الجسد والدم الكريمين في إناء من الفضة مخصص يسمى (حق المناولة).

العادة تلت قانون الإيمان الأرثوذكسى والصلاة الربانية ثم ناولها من الأسرار المقدسة .

† † †

وياللاعجوبة . . ويا لعظمة الله فى قديسيه التى رأيتها بعينى انا المسكين زوسيم ! !

رأيتها بعد قليل وقد رفعت يديها نحو السماء وصرخت قائلة : (الآن أيها السيد أترك عبدتك تذهب بسلام لأن عينى رأتا خلاصك) .

وحينئذ إستدات نحوى — وانا لم أكن قادراً على الحركة امام كل هذه العجائب — قائلة : (لى طلبة اخرى ايها الأب وهى أن تحضر فى العام القادم إلى المغارة الأولى حيث تقابلنا لأول مرة . وهناك سترانى مرة اخرى بمشيئة الرب)

ولم اعالك نفسى فقلت لها : ايتها الأم المكرمة . لى اشتهاء ان اتبعك فى الصحراء . فصمتت . ولمحتها تنظر إلى فوق كأنها تتطلع طويلا إلى شىء غير منظور . .

فقلت لها : ارجوك ان تتقبلى منى هذا القوت البسيط . وكنت

اتكلم بصوت ممزوج بالحزن والحيرة مما جعل القديسة تشعر بانها يجب عليها ان تستجيب لئلا تحزننى اكثر .

فأخذت قليلا من الترمس بيدها وسألت الله ان يعوضنى وقالت لى (لحفظ الجسد من الفساد (١) . تكفى نعمة الروح القدس — وارجوك ان تستمر فى الصلاة من اجلى كثيراً) .

وحينئذ رشمت علامة الصليب على النهر وعبرته راجعة . . . وسرعان ما اختفت عن أنظارى .

† † †

وعاد زوسيم إلى ديره فرحاً ولكنه كان قد نسى ان يسألها عن إسمها . وفى صوم السنة التالية ترك زوسيم الدير فى الميعاد المحدد ليذهب إلى الصحراء واسرع ومضى إلى المكان الذى قابل فيه (لأول مرة) القديسة الناسكة — التى تعرف كل شىء عنه وهو لا يعرف إسمها إلى الآن . ونزل فى الفجوة الصغيرة حيث كان حديثها لأول

(١) يبدو أنها تكلمت عن فساد الموت لأنها كانت ستنتقل من العالم وهو لم يفهم ذلك .

مرة . ونظر حوله . . ونظر بعيداً بقدر مايرى إتساع الصحراء يضيع فى الأفق البعيد . ودار حول المغارة وفتشها جيداً ولكنه توقف فجأة منفعلاً على أثر رؤيته لها ساجدة ووجهها متجه نحو الشرق ويداها بلا حركة ومنضمتان فى جمود الموت . . فركع زوسيم على ركبتيه وبكى كثيراً من أجل الراحلة الكريمة ، وصلى صلوات الدفنة عليها .

ولما أراد أن يفحص عن قرب وجهها وجد مكتوبا :

(ياأب زوسيم إدفن هنا جسد مريم البائسة وإترك التراب جسد الخطية هذا وصل من أجلى).

فتعزى القديس للتوحد بهذه القراءة جداً وأراد لو أمكنه أن يعرف نياحتها . . فتذكر أنها تنيحت ليلة تناولها من الأسرار عند الأردن (١) . وقد حملتها قوة إلهية فى النهار الى المغارة الصغيرة وفى أقل من ساعة كانت قد أتمت سفر (٢٠ يوما) سيراً على الأقدام .

† † †

---

(١) كانت ذلك سنة ٤٢١ م (السنكسار).

وظهر على وجه الشيخ فى هذه اللحظة مزيج من الألم والفرح وهم يحاول أن يحفر حفرة ليتمم آخر وصية للقديسة ولكن لم تكن لديه أدوات يستخدمها لهذا الغرض فلم يفلح وذلك لشدة صلابة الأرض هناك من ناحية . ومن ناحية أخرى كان جسده الضعيف بفعل السنين منهمكاً من هذا العمل غير المجدى وكان يصعب عليه الوقوف للاستراحة .

وفى أثناء جهاده وحيرته من أجل هذا الأمر رفع عينيه فوجد أسداً نائماً نصف نومة بجانب الجثة ويداه الى الامام وعيناه تبدو عليها الطيبة ولسانه متدل من فمه .

وعند رؤية هذا الزائر غير المتوقع خاف زوسيم جداً وبالأكثر لأن القديسة كانت قد أكدت له أنها لم تر وحوشاً أبداً

فرشم ذاته بعلامة الصليب وظن أن نفسه أنه قد أصبح فى حمى من أية مغامرة سيئة — ولم يكن على خطأ فى ظنه لأن ملك الحيوانات تقدم إليه وكأنه يزحف فى خطوات لطيفة وكان يجعل عينيه لطيفتين ومعبرتين بقدر الإمكان .

فقال له الشيخ وكأنه يوحى : أيها الحيوان الجميل — القديسة التى ههنا رغبت أن أدفن جسدها هذا .

فهز الحيوان ذيله وكأنه يقول (هذا حسن جداً) . وفى الحال إبتدأ الوحش فى العمل ـ وكأنه كان منتظراً هذا الأمر . وسرعان ماساعدته مخالبه الأمامية والخلفية فى حفر الأرض وما أن أتم عمله حتى ذهب لينام وكان يضرب وسطه بذيله وكان جالساً ينظر مايفعل الشيخ الذى وضع جسد القديسة وإستودع هذه الوديعة الثمينة الأرض باحترام مقدس وترك هناك بعض العلامات لكيما تظهر فى المستقبل .

وعاد زوسيم إلى ديره وهو يقول : حقا : إن العشارين والخطاة والزناة سيسبقوننا إلى الملكوت السماوى . وكان يحث نفسه كثيراً على غفلته السابقة .

وما أن وصل الدير حتى ذاع هذا السر وإبتدأ يحكى هذه الرواية العجيبة التى للقديسة التائبة . ودونها فى كتاب . ولاعجب فقد ظل طوال حياته الباقية وحتى بعد أن أذابته السنون ـ يذهب إلى المغارة الصغيرة كل سنة فى وقت الأربعين المقدسة .

وعاش هذا الأب الطوباى فى ديره هذا الى أن بلغ سن المائة وتنيح بسلام . بركة صلواته تكن معنا آمين ؟

أما القديسة فقد اكتشف جسدها فى عهد البطريرك يوحنا

بطريرك أورشليم .

وقد أجرى الرب على جسدها الطاهر عجائب وآيات كثيرة .

وعيد هذه القديسة كان يعتبر من الأعياد الأربعة للقديسين (١) التى كان يحيد بها الشرقيون القدماء فى شهر إبريل .

وتعيد لها الكنيسة القبطية فى يوم (١٦ برموده) من كل عام . بركة صلاة هذه القديسة تكون معنا ولربنا المجد دائما ابديا

آمين ؟

—— ** ——

(١) وهم (القديسة مريم المصرية ـ القديس مارقرقس ـ مارجرجس ـ مارجلوب الرسول) .

مراجع هذه القصة :

(١) كتاب قديسو مصر .

« شينـــو »

(٢) كتاب الدر الثمين فى أخبار القديسين .

« مكسيموس مظلوم »

(٣) كتاب سنكسار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية .

(٤) كتاب قصة الكنيسة القبطية .

« الأنسة إيريس المصرى »

(٥) كتاب « مروج الأخبار »